إِنَّ بَـعْـضـاً مِـنَ الـقَـرِيـضِ هُـذَاءٌ
لَـيْـسَ شَـيـئـاً وَبَـعـضَـهُ أَحْـكَـامُ[١]
مِـنْـهُ مـا يَـجْـلُـبُ الـبَـرَاعَـةُ وَالـفَـضْـلَ وَمِـنْـهُ مَـا يَـجْـلُـبُ الـبِـرْسَـامُ[٢]

ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها، فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة على حالته تلك فانحدر إلى بغداد. وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها، فقال يرثيها:

[الطويل]

أَلَا لَا أُرِي الْأَحْـدَاثَ مَـدْحـاً وَلَا ذَمَّـا
فـمـا بَـطْـشُـهـا جَـهْـلاً وَلَا كَـفُّـهـا حِـلْـمَـا[٣]

= أهمل مُحبّة له جميلة الحسن تتدفّق شباباً ونضارة، وليس في ذلك اقتراف الآثام، وهو لا يلام على ذلك؛ إنها التقوى العاصم الذي استمسك به الممدوح، والترفّع عن صغائر الأمور وتفاهتها، فكانت بمثابة الرادع يردعه عن المنكرات، واللائم الذي يصدّه عن الوقوع في الأخطاء، فتنزّه عن كلّ شائبة.

(١) و (٢) القريض: الشعر. الهذاء: التكلم بما هو غير معقول. يُعطي الشاعر رأياً نقدياً للشعر عامة؛ فبعضه كلام لا طائل منه ولا رواء فيه، فهو عبارة عن هذيان نطق به أحدهم، ويُظنّ أنه من الشعر. وثمّة نوع آخر نابع من تجربة حقيقية ومعاناة نفس تألّمت، فكانت الكلمة شعراً ينبع من القلب والعقل والشعور، فطار بها الخلود عبر الأزمان والأمكنة؛ إنه الشعر الحقيقي، وإنه مرض جنوني لا يستحقّ التفاتة، وسرعان ما تمحوه الذاكرة من الوجود.

(٣) الأحداث: مصائب الدهر وويلاته. البطش: الفتك بقوّة وعنف. إنها نظرة لمظاهر مجريات الأحداث التي يمرّ بها المرء، لذا لا ينفع الفرح إذا سرّته الأحداث أو آلمته، لأن الشعور في كلا الحالين يتبخّر كسراب يبدو من بعيد ثم يختفي، وما يبدو من عنف بطشها لا ينمّ عن جهل منها، وحتى توقّفها عن الإضرار بمصالح البشر لا يدلّ على حِلم أصيل نابع من إرادتها، فثمّة محرك لها خفيّ يُحركها كيف يشاء، ولذا فإنها لا تُلام على ما يبدو منها.

إِلَـى مِـثْـلِ مَـا كَـانَ الْـفَـتَـى مَـرْجِـعَ الْـفَـتَـى
يَـعُـودُ كـمـا أُبْـدِي وَيُـكْـرِي كـمَـا أَرْمَـى[١]
لَـكِ ٱلـلَّـهُ مِـنْ مَـفْـجُـوعَـةٍ بِـحَـبِـيـبِـهَـا
قَـتِـيـلَـةِ شَـوْقٍ غَـيْـرِ مُـلْـحِـقِـهَـا وَصْـمَـا[٢]
أَحِـنُّ إِلَـى الْـكَـأْسِ الَّـتِـي شَـرِبَـتْ بِـهَـا
وَأَهْـوَى لِـمَـثْـوَاهَـا الـتُّـرَابَ ومـا ضَـمَّـا[٣]
بَـكَـيْـتُ عَـلَـيْـهَـا خِـيـفَـةً فِـي حَـيَـاتِـهَـا
وَذَاقَ كِـلانَـا ثُـكْـلَ صَـاحِـبِـهِ قِـدْمَـا[٤]

---

(١) أبدى: خلق. أكرى: نقص. أرمى: زاد. تملأ الحسرة قَلب الشاعر؛ فالعدم يلاحق البشر جميعاً، فهم قبل ميلادهم، كانوا في ظلمة العدم، وإذ بمولدهم مقدّمة لعدم آخر يملأ القلوب الحسرات، فيعود ابن آدم إلى حالة عدمية بعدما يكون قد عرف طعم النصر والهزيمة والحبّ والكراهية والبطش والحلم وو. . . ، وبذلك يتلوّث، ليته لم يكن، ولما لم يكن للأحداث يد في ما ينزل بالمرء من حالات لا حصر لها فلا ذنب للأحداث لأن محرّكها واحد خفي قادر، يريد فيكون ما أراد، ولا مردّ لقضائه.

(٢) الوصم: العار والعيب. يدعو الشاعر لجدته بالرحمة؛ إنها في كنف اللّه تعالى الغفور الرحيم بعباده، لقد فجعها فراق حفيدها وكانت المفاجأة صاعقة، فإذا بالموت يعاجلها، فحبّها حبّ الأم لولدها، فيه طهر وحبّ وتكريس وشوق، لا عيب فيه ولا عار.

(٣) يقصد بالكأس: الموت. المثوى: القبر. إنه حنين الشاعر، حنين من نوع آخر، إنه حنين إلى الموت، والموت كأسه علقم في نظر محبّي الحياة والخائفين منه، فشوق الشاعر لذلك أسبابه ودواعيه، إنها رابطة الدم والحبّ والتكريس والتربية، لذا فهو يهوى التراب الذي حلّت جدّته بضيافته، لا حبًّا فيه كمادة، بل لأنه رمز معنوي لما يرمز إليه من علائق إنسانية تسمو فوق المادة وما تمثله من مصالح وعلائق.

(٤) الثكل: الفقد. قدماً: قديماً. البكاء لغة الحرمان، فقد بكى الشاعر لحرمانه مشاهدة جدّته في حياتها، فقد كان يجوب الآفاق يطرق أبواب ذوي اليسار والأمراء، فلما حان له أن يستريح إلى حضن جدّته الدّافئ فتح عينيه ليجدها قد اختفت ولحقت بالعدم، ولطالما كانت تفتقد الشاعر بدورها، فكأنما قد فقد كلّ منهما الآخر في حياته قبل موتها.

وَلَوْ قَتَلَ ٱلْهَجْرُ ٱلْمُحِبِّينَ كُلَّهُمْ
مَضَى بَلَدٌ بَاقٍ أَجَدَّتْ لَهُ صَرْمَا[١]
عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا
فَلَمَّا دَهَتْنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْمَا[٢]
مَنَافِعُهَا مَا ضَرَّ فِي نَفْعِ غَيْرِهَا
تَغَذَّى وَتَرْوَى أن تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَا[٣]
أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ
فَمَاتَتْ سُرُوراً بِي فَمُتُّ بِهَا غَمَّا[٤]
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ فَإِنَّنِي
أَعُدُّ الَّذِي مَاتَتْ بِهِ بَعْدَهَا سُمَّا[٥]

(١) أجدّت، جدّدت. الصرم: القطيعة. ولم يكن الرباط فقط صراعاً على الجدّة، بل إنه رابط قوي بالأرض التي فتّح عينيه على ترابها وشرب من مائها، وضحك ولعب مع لداته في أزقتها، إنه حبّ الوطن الذي فقد طعم الراحة والاستقرار فيه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. دهتني: فاجأتني. الليل رمز الظلمة والوحشة والخوف والاغتراب، إنها معرفة حيّة عاشها الشاعر طوال حياته، فاختمرت لديه تجربة الألم، ورغم أن المفاجأة كانت صاعقة، فقد أكّدت نظريته، فلم تزده علماً بكارثة كهذه بل أضافت حزناً إلى حزن.

(٣) نظرة سوداوية إلى الدنيا، إنها تستأثر بالمنافع لنفسها دون البشر فتسلبهم أحلامهم وأحباءهم بل وتتعدّى ذلك إلى وجودهم، وهي لا تني تسلبهم كلّ شيء تتغذّى بهم وترتوي بدمائهم، وهي تهتم بآلامهم وجوعهم وعطشهم إلى سعادة الحياة وهناءة العيش الكريم في ظلّ قيم نبيلة خالدة.

(٤) الترحة: الحزن. عاد الشاعر إلى جدّته، فقد مات كلّ منهما، لقد ماتت من شدّة الفرح المفاجئ، فلم تحمل هول المفاجأة فكانت الوفاة، والشاعر بدوره مات نفسياً وألماً لمفاجأة صاعقة لم يكن يتوقعها بعد افتراقهما وغربته عنها.

(٥) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في الوساطة: ١٤٩. نتيجة ما حدث صمّم الشاعر على استعداء السرور، فلن يعرف له طعماً بعدما ماتت جدّته به، إنه سمّ قاتل، لذا فيتجنّبه ويحرّمه عليه.

تَـعَـجَّـبُ مِـنْ لَـفْـظِـي وخَـطِّـي كَـأَنَّـهَـا
تَـرَى بِـحُـرُوفِ الـسَّـطْـرِ أَغْـرِبـةً عُـصْـمَـا[١]
وَتَـلْـثِـمُـهُ حـتَّـى أصَـارَ مِـدَادُهُ
مَـحَـاجِـرَ عَـيْـنَـيْـهَـا وَأَنْـيَـابَـهَـا سُـحْـمَـا[٢]
رَقَـا دَمْـعُـهَـا ٱلْـجَـارِي وَجَـفَّـتْ جُـفُـونُـهَـا
وَفَـارَقَ حُـبِّـي قَـلْـبَـهَـا بَـعْـدَ مَـا أَدْمـى[٣]
وَلَـمْ يُـسْـلِـهَـا إلّا الـمَـنَـايَـا وَإنّـمَـا
أَشَـدُّ مِـنَ الـسُّـقْـمِ ٱلّـذِي أَذْهَـبَ الـسُّـقْـمَـا[٤]

(١) يروى الشطر الأول من البيت على النحو التالي: «تعجّب من خَطِّي ولفظي كأنها» الأغربة، الواحد غراب. الأعصم من الغربان: ما في جناحيه بياض، وذلك نادر. يتحدّث الشاعر عن يأس جدّته من عودته، ولطالما ألهاه تجواله في البلاد، فأنساه أن يكتب إليها في النادر، حتى كانت مفاجأة عودته وطلبه أن تلقاه، فإذا بها تقرأ ما كتب وتعيد القراءة مرّات ومرّات، وكأن بين السطور شيئاً لم تصدّقه عيناها أن الشاعر قد كتب إليها يستدعيها، لندرة ما يكتب إليها.

(٢) تلثمه: تقبّله. المحاجر، الواحد محجر: ما حول العينين. سحماً: سوداً. يُردف الشاعر واصفاً حالة جدّته وهي تقرأ رسالته، إنها تقبّلها، بجوع الحبّ والحرمان، ولشدّة شوقها تضع الرسالة على عينيها كأنها ترى حفيدها من سطور الرسالة السوداء، فإذا بدموع الفرح تختلط بمدادها، فتحوّل ذلك الوجه الذي تحوّل إلى قطعة قماش بالية هدّها الدهر وألحق فيه أثلاماً من التجاعيد، فاستحال كلّ ذلك إلى سواد فاتّخذت الرسالة بالوجه وما يتمثّل فيه من آلام وفراق وشوق وحبّ.

(٣) رقأ الدمع: جفّ. يصف الشاعر ما كانت عليه جدّته حالة وفاتها، لقد تجمّد كلّ شيء فيها؛ فقد جفت دموعها فإذا بجفونها هامدة لا حراك فيها، وما عادت تشعر بشيء من الحبّ نحو حفيدها، ولطالما كان الشوق يملأ قلبها حتى أدماه فراق حفيدها.

(٤) يسلها: يُنسها. المنايا، الواحدة منية: الموت. السقم: المرض. يتحدّث الشاعر عن شدّة شوق جدّته إليه؛ إنها دائمة التذكر له، وكأنها في حالة مرضية مزمنة، حتى حدث ما حدث فأنستها المنايا أحزانها وآلامها، فإذا بذلك المرض يذهب معها، وبذلك استراحت من عظم البلاء.

طَـلَـبْـتُ لَـهَـا حـظًّـا فَـفَـاتَـتْ وَفَـاتَـنِـي
وَقَـدْ رَضِـيَـتْ بـي لَـوْ رَضِـيـتُ بـهَـا قِـسْـمَـا[١]
فَـأَصْـبَـحْـتُ أَسْـتَـسْـقِـي ٱلْـغَـمَـامَ لِـقَـبْـرِهَـا
وَقَـدْ كُـنْـتُ أَسْتَسْقِي الْوَغَى وَالْقَنَا الصُّمَّا[٢]
وَكُـنْـتُ قُـبَـيْـلَ الـمَـوْتِ أَسْـتَـعْـظِـمُ الـنَّـوَى
فَقَدْ صَارَتِ الصُّغْرَى الَّتي كَانَتِ الْعُظْمَى[٣]
هَـبِـيـنِـي أَخَـذْتُ الـثَّـأْرَ فِـيـكِ مِـنَ الْـعِـدَى
فَـكَـيْـفَ بِـأَخْـذِ الـثَّـأْرِ فِـيـكِ مِـنَ ٱلْـحُـمَّـى[٤]
وَمَـا ٱنْـسَـدَّتِ الـدُّنْـيَـا عَـلَـيَّ لِـضِـيـقِـهَـا
وَلٰـكِـنَّ طَـرْفـاً لَا أَرَاكِ بِـهِ أَعْـمَـى[٥]

---

(١) يعلّل الشاعر سبب فراقه لجدّته؛ لقد قصد من تجواله في الدنيا الواسعة أن يغتني فيُسعدها، فلم يحالفه الحظّ ولم تواته الفرصة رغم طول المحاولات وتكرارها، وكانت النتيجة ضياع العمر سدى وموت الجدّة، فكانت الحسرة مضاعفة، والمشكلة أن الجدّة قبلت الشاعر كما هو بما يتمثل به الحفدة عادة، وللأسف لم يكن لدى الشاعر أن يقبل ويقتنع بوجود جدّته إلى جانبه، ولذا فإنه يلوم نفسه على تقصيره تجاهها.

(٢) أستسقي: أطلب السقيا. الغمام: السحب. الوغى: من أسماء الحرب. القنا: الرماح. الصمّ: الصلبة. لقد قسم الشاعر حياته قسمين، لقد كان يُمارس سقيا دموية فيطلب من ربّه أن يُباركه، وهو يُقاتل أعداءه في ميادين القتال ويستعين بالرماح الصلبة فيقتل الأبطال، وهاهو الآن يستسقي قبر جدّته طالباً من السماء أن تمطرها الرحمة ودوام السقيا، بقوله: سقى اللّه تعالى قبرها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. النوى: البعد. يعبّر الشاعر عن شدّة حزنه؛ فقد كان قبل موت جدّته يستعظم بعده عنها، فإذا بإحساس الفرقة يتقلّص ويصغر مقابل موتها الذي يعتبره كارثة عظيمة، يصعب على المرء احتمالها، حلّت به.

(٤) هبيني: افترضي أنني، الثأر: الانتقام. يُخاطب الشاعر جدّته مفترضاً أنها قتلت، فسوف يثأر لها من قاتليها، ولكن الأمر يتعلّق بسبب آخر، لا شكل له ليثأر منه لأنه سبب موتها؛ إنها الحمّى التي فاجأتها فأودت بحياتها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. الطرْف، بسكون الراء: =

فَـــوَا أَسَـــفَـــا أَنْ لَا أُكِـــبَّ مُـــقَـــبِّـــلاً
لِـرَأْسِـكِ وَالـصَّـدْرِ الـلَّـذَيْ مُـلِـئَـا حَـزْمَـا[١]
وَأَنْ لَا أُلَاقِـــى رُوحَـــكِ الـــطَّـــيِّـــبَ الّـــذِي
كَـأَنَّ ذَكِـيَّ الـمِـسْـكِ كَـانَ لَـهُ جِـسْـمَـا[٢]
وَلَـــوْ لَـــمْ تَـــكُـــونِـــي بِـــنْـــتَ أَكْـــرَمِ وَالِـــدٍ
لَـكَـانَ أَبَـاكِ الـضَّـخْـمَ كَـوْنُـكِ لِـي أُمَّـا[٣]
لَـئِـنْ لَـذَّ يَـوْمُ الـشَّـامِـتِـيـنَ بِـيَـوْمِـهَـا
فَـقَـدْ وَلَـدَتْ مِـنِّـي لأَنْـفِـهِـم رَغْـمَـا[٤]
تَـغَـرَّبَ لَا مُـسْـتَـعْـظِـمـاً غَـيْـرَ نَـفْـسِـهِ
وَلَا قَـابِـلاً إِلّا لِـخَـالِـقِـهِ حُـكْـمَـا[٥]

= النظر. يُحسّ الشاعر بالضياع، الدنيا لا تزال على حالها، فرغم اتساعها لقد أحسّ أنها انكمشت وضاقت مسالكها، حتى بدا لا يعرف طريقه كالأعمى لفقده جدّته.

(١) أكبّ: انحنى على وجهه، يعبّر الشاعر عن شدّة حزنه وألمه أنه ما استطاع دفنها، فلو حصل ذلك لانكبّ عليها يغسل رأسها وصدرها بقبلاته الحرّى الممتلئة شوقاً وحبًّا، اللذين ملئا عزيمة قوية وعقلاً منفتحاً يقظاً.

(٢) يُردف الشاعر أنه يأسف أيضاً أن روح جدّته كانت تنفث طهراً ومسكاً وعبيراً عظيم النشر في جسدها، فكانت روحها محرّكاً لجسدها المفعم بالطيب.

(٣) الضخم: العظيم. يخاطب الشاعر جدّته مفاخراً بنفسه، فلو لم يكن والدها عظيم النسب ذا يد طويلة في الأمجاد، لكفاها أن تنتسب إلى الشاعر، فهذا أعظم نسب، وهو أفضل مدعاة إلى الفخر.

(٤) لذّ: طاب وسرّ. الشامتين: الفرحين بمصابه الأليم من أعدائه، رغم أنفه: دسّ في التراب. رغم مأساة الشاعر فإنه لم ينس فخره بنفسه، ثمّة من فرح بموت جدته فشمت به وبموتها، والحقّ أنها خلّفته ليكون في نحورهم يكيد لهم ويُذلّهم فيمرّغ أنوفهم بالتراب. ولو نظر المرء إلى حالة تلك المرأة المسنّة التي لا دور لها، ولا أحد يهتمّ بحياتها فضلاً عن موتها ليشمت بها.

(٥) يسترسل الشاعر بفخره، لقد رحل في الأرض لا يرى له ندًّا أو كفؤاً إنه يشعر بنفسه بركان عظمة، لذا لم يرض أحداً من البشر أن يُقارن به فلم يقبل حكماً من البشر يتحكّم بمصيره إلّا خالقه سبحانه وتعالى.

وَلَا سَـــالِـــكـــاً إلَّا فُـــؤَادَ عَـــجَـــاجَـــةٍ
وَلَا وَاجِـــداً إلّا لِـــمَـــكْـــرُمَـــةٍ طَـــعْـــمَـــا[١]
يَـــقُـــولُـــونَ لِـــي مَـــا أَنْـــتَ فِـــي كُـــلِّ بَـــلْـــدَةٍ
وَمَـا تَـبْـتَـغِـي مَـا أَبْـتَـغِـي جَـلَّ أنْ يُـسْـمَـى[٢]
كَـــأَنَّ بَـــنِـــيـــهِـــمْ عَـــالِـــمُـــونَ بِـــأَنَّـــنِـــي
جَـلُـوبٌ إلـيْـهِـمْ مِـنْ مَـعَـادِنِـهِ الْـيُـتْـمَـا[٣]
وَمَـا ٱلْـجَـمْـعُ بَـيْـنَ الـمَـاءِ وَالـنّـارِ فِـي يَـدِي
بِـأَصْـعَـبَ مِـنْ أَنْ أَجْـمَـعَ ٱلْـجَـدّ وَالْـفَـهْـمَـا[٤]

---

(١) العجاجة: الغبار. يرسم الشاعر خريطة حياته الماضية؛ إنه يخوض الحروب فيسلك ضروبها حيث تتصاعد الأغبرة، وطعمه فيها مادة لا يعرف طعمها سواه، إنها المكارم والشوق إلى ضرب أعناق الأعداء.

(٢) يستغرب الناس كثرة أسفار الشاعر وتجواله، فيسألونه عن سرّ ذلك وعن غايته من التنقّل في حياة مليئة بالمخاطر والأهوال، ولو استطلع المرء حياته لوجد أنه كان يسعى إلى الغنى والشهرة، ولو ردّ على أسئلة الناس لقال، إنه لن يُفصح عن ذلك إلّا بقتل الملوك والاستيلاء على ملكهم، ولقد ملأت نفسه الغيرة منهم وحسدهم، ولطالما تصوّر نفسه في أمكنتهم.

(٣) يُردف الشاعر مستوضحاً، رغم شكّه بعجزهم أنهم يظنون بأنه سوف يقتل آباءهم ويجعلهم أيتاماً، لذا فهو يجول باحثاً عن أمثال ملوك لا يستحقّون أن يحتلّوا مقاعدهم، ولذلك فالأبناء يكرهون الشاعر، فضلاً عن آبائهم. والسؤال لأي سبب راح المتنبي يمدح العدد الكبير من رجال عصره؟

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. الجَدّ، بفتح الجيم: الحظ. لطالما ظنّ الشاعر أن حظّه تعيس، ولو وفّق بتولي منصب ولاية لما سمعنا به طوال تاريخنا المجيد، فإذا كان لم يُفلح بتولي منصب كهذا، فقد تولّاه ملايين منهم فعاشوا وماتوا ولم يتركوا أثراً، وذلك من حسن حظّه ولطالما بجّلوه وأكرموه، وهم يشعرون في قرارة أنفسهم بما يمتاز به عنهم. وهو يرى أن الفهم والعلم لا يتوافقان مع الحظّ، تماماً كالماء والنار لا يجتمعان.

وَلٰـكِـنَّـنِـي مُـسْـتَـنْـصِـرٌ بِـذُبَـابِـهِ
وَمُـرْتـكِـبٌ فِـي كُـلِّ حَـالٍ بِـهِ الْـغَـشْـمَـا[١]
وَجَـاعِـلُـهُ يَـوْمَ الـلِّـقَـاءِ تَـحِـيَّـتِـي
وَإِلَّا فَـلَـسْـتُ الـسَّـيِّـدَ الْـبَـطَـلَ الْـقَـرْمـا[٢]
إِذَا فَـلَّ عَـزْمِـي عَـنْ مَـدًى خَـوْفُ بُـعْـدِهِ
فَـأَبْـعَـدُ شَـيءٍ مُـمْـكِـنٌ لَـمْ يَـجِـدْ عَـزْمَـا[٣]
وَإِنِّـي لَـمِـنْ قَـوْمٍ كَـأَنَّ نُـفُـوسَـهُـمْ
بِـهَـا أَنَـفٌ أَنْ تَـسْـكُـنَ الـلَّـحْـمَ وَالْـعَـظْـمَـا[٤]
كَـذَا أَنَـا يَـا دُنْـيَـا إِذَا شِـئْـتِ فَـاذْهَـبِـي
وَيَـا نَـفْـسُ زِيـدِي فِـي كَـرَائِـهِـهَـا قُـدْمَـا[٥]

(١) بذبابه: أي بذباب السيف: أي حدّه. الغشم: الظلم والتعدّي. يُردف حديثه أنه لم يُفلح بجمع الحظّ الحسن والعلم وحدّة الذكاء، فإذا به يستعيض عن الحظّ بسيفه ويركب مطيّة الظلم والتعدّي فيبطش بأعدائه مستنصراً بالسيف صديقه الودود.

(٢) القرم: الفحل. يُردف الشاعر مفتخراً بسيفه، إنه تحيّته لأعدائه، يلتقي به أعداءه فيبطش بهم؛ فتلك تحية الأعداء؛ وإن لم يفعل ذلك فليس بالسيد البطل الشجاع القويّ.

(٣) يروى «قلّ» بدلاً من «فلّ». وفلّ السيف: تثلّم لكثرة استعماله. المدى: الغاية، البعد. إنها المحاولة والقناعة بفحواها ونتيجتها، لذا فلو حال البعد دون تحقيق أماني الشاعر فعليه أن يستنجد بعزيمته وقوّته حتى يبلغ أبعد الغايات ويتغلّب على كلّ الصعوبات، فإذا بالصعب يبدو سهلاً وببعد المسافات يُقرّب أبعادها.

(٤) الأنف: استكراه شيء ما. يفخر الشاعر بأنه ممن يكرهون الدّعة والركون إلى ذلّ الضعف والهوان، لذا فإنه يهوى ترقي أعلى قمم المجد، وفي هذه الحالة فالجسد لا يحتمل تلك النفوس الوثّابة، فإذا بها تتوثب للانفلات من ربقة المادة لتلحق بعالمها، يبدو الشاعر قد نسي جدّته في زحمة تأملاته.

(٥) كرائهها، الواحدة كريهة. يُخاطب الشاعر الدنيا منوّهاً بعزيمة لا تلين، فحربه لن تقف، ولن يرضى بالذلّ والضيم، بل سيبقى محارباً عنيداً لا تلين له قناة، ولذا فهو يتمنّى التخلّص من حياة لا تُحتمل في حرب غير متكافئة مع الدنيا والزمن الذي لا يستطيع مخلوق الانفلات منه كما يحلو له.

فَـلَا عَـبَـرَتْ بِـي سَـاعَـةٌ لَا تُـعِـزُّنِـي
وَلَا صَـحِـبَـتْـنِـي مُـهْـجَـةٌ تَـقْـبَـلُ الـظُّـلْـمَـا[١]

ومن عرف الأيام معرفتي بها

يمدح الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد اللّه بن طغج بالرملة:

[الطويل]

أَنَـا لَائِـمِـي إِنْ كُـنْـتُ وَقْـتَ الـلَّـوَائِـمِ
عَـلِـمْـتُ بِـمَـا بِـي بَـيْـنَ تِـلْـكَ الْـمَـعَـالِـمِ[٢]
وَلٰـكِـنَّـنِـي مِـمَّـا شُـدِهْـتُ مُـتَـيَّـمٌ
كَـسَـالٍ وَقَـلْـبِـي بَـائِـحٌ مِـثْـلُ كَـاتِـمِ[٣]
وَقَـفْـنَـا كَـأَنَّـا كُـلُّ وَجْـدِ قُـلُـوبِـنَـا
تَـمَـكَّـنَ مِـنْ أَذْوَادِنَـا فِـي الْـقَـوَائِـمِ[٤]

(١) يدعو الشاعر بإحساس تشاؤمي ألّا تمرّ به ساعة لا عزّ فيها، وكذلك يُعلن التخلّي عن نفسه في حال رضوخها لمغريات الظلم مهما كانت الأسباب ومهما كانت نتائجها.

(٢) ورد الشطر الأول من البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٦. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. المعالم، الواحد معلم: الأثر يستدلّ به على الطريق. ما إن تكشفت معالم ديار الحبيبة حتى عرا الشاعر فجأة حالة من الجزع والبكاء، نبّهت صحبه، فإذا بهم يهدّئون من روعه، ولكنه زاد بكاؤه فإذا بهم يلومونه على بكاء ديار حبيبته. ولقد أثار وجده مشاعره فلم يتمالك نفسه فاسترسل في بكائه، ولو أنه انتبه لحاله لبدأ يلوم نفسه قبل لوم سواه له.

(٣) يروى «ذهلت» بدلاً من «شدهت»: دهشت وتحيّرت. المتيّم: العاشق الولهان. يُعلّل الشاعر الحالة التي خامرته بلا وعي منه؛ إنها المفاجأة التي فجّرت مشاعره لرؤية حالة تلك الآثار، فأحيت فيه ذكريات عزيزة على القلب، وقد اندهش لشدّة إحساسه، فأصبح كالسامي، وكشف قلبه ما كان دفيناً في أعماق نفسه، فطفا على سطح وجهه دموع وأنين، ولم يكن ليصرّح به في ما مضى.

(٤) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٣. الأذواد، جمع ذود: والذود ما بين الثلاثة إلى العشر من الإبل. إنه وقوف الذكرى والتأسّي، فالماضي كُتب على الجباه وسطر خطوطه في النفوس، إنه وقوف صلاة حيث تعمّ العظة تملأها الحسرات، فينسى المرء نفسه ساعتئذٍ، حتى إن قوائم الإبل تسمّرت في أمكنتها تشارك الركب أحاسيسهم ومشاعرهم.